

أبو إسماعيل الطغراني

عالم كبير قتلته
السياسة

□ د. طالب عمران

منذ بداية الحضارة العربية ، انصب إنتاج نوابغ العلماء الإغريق وعلماء الحضارات القديمة في جميع العلوم، في عقول العلماء العرب والمسلمين حتى صارت هذه العلوم تأخذ الطابع العربي..

ولقد اشتهر علماء العرب في بداية أمرهم بالبحث عن الحقيقة والتحري ومحاولة الحفاظ على روح البحث العلمي، فاستندوا في بحوثهم على منهج علمي واضح وجلي كان قوامه التجربة العلمية..

ونجد بتتبعنا لإبداعات العرب عبر عصرهم الذهبي، أنهم الذين أرسوا قواعد البحث العلمي السليم، وليس يكون وديكارت كما يدّعيه كثير من المؤرخين في العلوم الطبيعية..

وفي حقل الكيمياء وهو أحد فروع علمية عديدة برع وأبدع فيها العلماء العرب، نجد أن أفذاذاً كجابر بن حيان والرازي وابن سينا والجلدكي والطغراني قد أبدعوا في استخدام طريقة التجريب والبحث..

واتفق المؤرخون أن علم الكيمياء هو علم عربي أصيل وضعه علماء العرب وثبتوا أركانه بتجاربهم ونظرياتهم..

درس العرب خواص المادة واستعملوا آلات متقدمة لإيجاد الوزن النوعي والكثافة النوعية لبعض المعادن الثمينة والجواهر الكريمة.. وكانت القيم العددية التي توصلوا إليها في معظم الحالات تتفق ونتائج تجارب علماء هذا العصر..

اشتغل العرب في صناعة الورق وتوصلوا إلى طرق رخيصة لإنتاج الورق الذي ظل يستعمله الأوروبيون لعدة قرون..

ورغم أن صناعة الورق عرفت عند الصينيين، إلا أن الصينيين كانوا يستخدمون بقايا الحرير - وهو غالي الثمن - للحصول على الورق.. لكن العرب عندما أدخلوا هذه الصناعة إلى بلادهم أسسوا معامل للورق في سمرقند وخراسان وبغداد والشام وشملت أيضاً أفريقيا ثم في الأندلس..

كان الورق يصنع من شرائق ونفايات الحرير إذن، ولكن العرب حوروا هذه الصناعة فصنعوه من القطن، ووجدوا أن هذه المواد غالية الثمن لذلك صنعوا الورق من نفايات القطن والخرق البالية..

وهذا الاكتشاف اعتبر اكتشافاً مذهلاً في ذلك الحين، لأن الورق أصبح متيسراً كمّاً ونوعاً، ولأنه العامل الأساسي لنشر الكتاب بين الناس..

وتقدم العرب في حقل التعدين فأوجدوا المواد التي مكنتهم من صناعة المتفجرات والمفرقات والسماد والأصبغة، وصنعوا بإتقان السيوف والخناجر والمدافع النارية وأنشأوا في عصر الخلافة العباسية معملًا كيمياوياً لتركيب البارود في بغداد واستخدموه عوضاً عن حبل المنجنيق..

ما من شك - على رأي حيدر بامات - صاحب كتاب إسهام علماء العرب في الحضارة أن علماء العرب هم مكتشفو البارود سهل الانفجار قبل روجر بيكون الذي ادّعى اكتشافه بعد قرون.. كما أنهم أجادوا دباغة الجلود، وأنتجوا أنواعها المتعددة الرقيقة والسميكة وكشفوا أسرار المواد الكيماوية الضرورية في تثبيت الألوان..

أما في صناعة الزجاج فصنع العرب الزجاج الملون والصحون والقوارير لحفظ العطور وزجاج المصابيح، وتفنن الكيميائيون في صباغة الزجاج بألوان مختلفة حتى أصبحت قطعه تستخدم كأحجار كريمة..

لقد أوجد العرب المنهج الاستقرائي التجريبي في علم الكيمياء واستخدموا الموازين والآلات والمكاييل وطبقوا الوسائل العلمية على الظواهر الكيميائية..

ويؤكد (ويل ديورانت) أن العرب أضافوا على علم الكيمياء أصالة البحث العلمي وهذه الطريقة هي التي انتهجها أعظم علماء العصور الوسطى..

يؤكد غوستاف لوبون المؤرخ المعروف أنه : (لولا العرب لما استطاع لافوازييه - الكيميائي الفرنسي المعروف - أن ينهي اكتشافاته المرموقة ..)

سنتحدث اليوم عن عالم كيميائي موسوعي معروف هو أبو إسماعيل مؤيد الدين الحسين بن علي الأصفهاني المعروف بالطغرائي..

ينحدر الطغرائي من عائلة عربية عريقة وهو من أحفاد أبي الأسود الدؤلي وقد ولد عام (453) هجرية الموافق لـ (1061) للميلاد في مدينة (جي) في مقاطعة أصفهان.. إلا أنه قضى جل حياته في الموصل إبان الحكم السلجوقي..

- اكتب يا عامر في (جامع الأسرار) إنها معلومات جديدة ..
- ماذا يا سيدي؟
- إن علم الصنعة وهو علم يبحث في تحويل العناصر البخسة إلى ذهب أو فضة، يتطلب ممن يمارسه أن يجيد الحكمة فكراً وعملاً.
- أنا أتابع الكتابة بخط متأن..
- بارك الله فيك، أكمل: ((إن هذا العلم لما كان الغرض فيه الكتمان وإلجاء الأذهان الصافية إلى الفكر الطويل، استعمل فيه جميع ما سمي عند حكمائهم مواضع مغلفة من استعمال الأسماء المشتركة والمترادفة والمشككة.. وأخذ فضل الشيء أو عرضه الخاص أو العام مكان الشيء.. وحذف الأوساط...))
- حذف الأوساط؟
- أقصد حذف الأوساط المحتاج إلى ذكرها، وتبديل المعنى الواحد في الكلام الطويل وإهمال شرائط التناقض في أكثر المواضيع حتى يحار الذهن في أقاويلهم المتناقضة الظاهر.. وهي في الحقيقة غير متناقضة..
- لماذا هي غير متناقضة يا سيدي؟
- ها.. سأشرح ذلك لك: اكتب : ((هي غير متناقضة لأن شرائط التناقض غير مستوفاة فيها، واستعمال القضايا مهمة غير محصورة، وكثيراً ما تكون القضية الكلية المحصورة شخصية...))
- نعم.. كثيراً ما تكون القضية الكلية المحصورة شخصية؟

- فإذا جاء في كلامهم تصبغ أو تعقدّ كل جسد فإنما هو جسد واحد وإذا قالوا إن لم يكن مركّبًا من كل شيء، لم يكن منه شيء..
- إنها جمل صعبة يا سيدي..
- وعلم الصنعة ليس علماً سهلاً..
- سمعا طرقاً على الباب ترك عامر ما بيده وأسرع يقول:
- سأفتح الباب يا سيدي..
- هل هذا هو منزل أبي إسماعيل مؤيد الدين الأصفهاني؟
- نعم.. ماذا تريدون منه؟
- أرسلنا السلطان محمد لاصطحابه إليه..
- لاصطحابه إليه؟ خير؟ لماذا يريد السلطان محمد السلجوقي؟
- لا نعرف شيئاً.. ما نريده هو تنفيذ أمر السلطان.. هل هو موجود؟ أرجوك أحضره إلينا وإلا اقتحمنا المنزل..
- أسرع الطغرائي إليهم:
- تقتحمون المنزل؟ لماذا؟ ما هي التهمة التي توجهونها إلي..؟
- آسفون يا سيدي، السلطان يريدك لأمر هام.. طلب منا اصطحابك بأية طريقة..
- حسن أنا قادم.. سأرتدي لباس الخروج فقط..
- سننتظرك يا سيدي..
- وفي ذلك الأثناء في مجلس السلطان محمد السلجوقي كان السلطان يسأل مسعود ابنه:
- إلى هذه الدرجة هو متبحر في العلوم؟
- إنه عالم وأديب شاعر يا أبي..
- سأختبره الآن.. هه.. أعتقد أنهم أحضروه.
- دخل الحاجب يعلن قدوم أبي إسماعيل مؤيد الدين الحسين بن علي الشهير بالطغرائي..
- ودخل الرجل الأربعيني:
- السلام على سلطان المسلمين..
- وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته، تفضل يا أبا إسماعيل.. اجلس إلى جانبنا.. هه..
- ابننا مسعود امتدحك كثيراً..
- إنه أمير كريم يا مولاي..

- أبي يريد أن يطرح عليك يا أبا إسماعيل بعض الأسئلة في الفلك والنجوم..
- أنا جاهز يا مولاي..
- هل يمكن لكوكب زحل أن يقترب من الأرض؟
- لا يمكن لكوكب أن يخرج عن مساره إلا بإرادة الله عز وجل.. لماذا تسألني هذا السؤال يا مولاي؟.
- رأيت يا أبا إسماعيل حلماً سبّب لي الرعب، رأيت كأنني في صحراء شاسعة أمشي وحيداً دون أنيس، والظلام يتكاثر من حولي، ثم شعرت وقد تملكني الرعب، أن السماء تقترب من الأرض، وإذا بي أجد كوكب زحل يدنو من الأرض لدرجة كبيرة ويمتد منه لسان من الضوء يجذبني في طياته.. وأنا أصرخ وأستغيث وحين استيقظت كنت أرتجف من الرعب..

فكر الطغرائي:

- إنه حلم صعب.. ماذا سأقول له؟
- ما بالك شردت يا أبا إسماعيل..
- أفكر بحلمك يا مولاي..
- هل هو نذير بمصيبة؟
- لماذا لا يكون نذيراً ببشارة خير يعم البلاد والعباد؟
- أعتقد ذلك يا أبا إسماعيل؟
- لم لا يا مولاي؟
- أكدّ لي بعض المنجمين أن (زحل) نذير سوء..
- الله العارف بالغيب، وهو الذي سيذهب سحب السوء ويجليها، والتشاؤم يجلب الغمة ويشير الشك والخوف في النفوس..
- بارك الله فيك وبأدبك وعلمك، لقد أرحتني..

همس مسعود:

- قلت لك يا أبي إنه عالم جليل يعرف الله عز وجل ويؤمن به..
- فكر الطغرائي شارداً:
- يبدو أنه اختبار لإيماني.. ما رآه السلطان قد يكون تأويله صعباً ومؤملاً.. ولكن هل أستطيع البوح بما في نفسي؟ الحاسدون يترصدون خطواتي ويدققون بكلامي..

- لا تقف هكذا موقف الخجل يا أبا إسماعيل، عد إلى مجلسك معنا، وأنسنا بحديثك الممتع والمفيد؟
- شكراً لك يا مولاي..
- همس مسعود في أذنه :
- يجب أن أراك اليوم يا أبا إسماعيل، قابلني في المساء..
- وفي المساء قال مسعود :
- قل لي يا أبا إسماعيل، أعتقد أن والدي يتعرض لخطر؟ صحته ليست على ما يرام..
- تقصد الحلم بالطبع؟
- نعم.. هل ما قلته في الديوان السلطاني يعبر فعلاً عن رأيك؟
- إلى حد ما.. فالغيب لا يعلمه إلا الله، ولكن الحلم الذي رآه السلطان ليس سهلاً، ربما يعني اشتداد المرض، وربما العكس..
- أخي الأمير محمود يعتقد أن والدنا في أيامه الأخيرة.. وهو يجهز نفسه لاستلام مقاطعة أصفهان..
- إنه متعجل وأعتقد أن (السميرمي) ليس ناصحاً جيداً، إنه يوغر صدره ليأخذ نصيبه الأكبر في تركة السلطان حفظه الله..
- حاولت كثيراً أن أبين له أن ذلك الرجل (السميرمي) الذي قربه منه كثيراً، هو رجل نهّاز للفرص كثير الحيلة والخداع والأذى بالناس.. (السميرمي) يغار منك يا أبا إسماعيل، يعتقدك دجّالاً..
- سامحه الله..
- هو رجل حقود، خذ حذرك منه..
- أنت الابن الأكبر أيها الأمير، وحين تستلم البلاد وتصبح تحت قيادك ستضع حداً لأذى الجاحدين والحاquدين..
- أنت الأقرب لي يا أبا إسماعيل وأثق برأيك..

وكان كمال نظام الدين أبو طالب علي بن أحمد حرب الملقب بالسميرمي - نسبة إلى بلدة سميرم بين أصفهان وشيراز - قد شنّ حملة ظالمة على الطغرائي، متابعاً متهماً إياه بالكفر والزندقة.

كان السميرمي داهية حقوداً ، سيطر على الأمير محمود السلجوقي وأصبح لا يسمع سوى لنصحه ، وكان يحضر له الجواري الجميلة ويضع أمامه كل صنوف المغريات ليتمتع في حياته وهو بعد في أوج شبابه..

وصمم السميرمي الوصول لعفراء الصبية الجميلة أخت عامر أحد تلامذة الطغرائي ، فحاول أن يستجرها إلى قصره ليرسلها إلى الأمير محمود ، ولكن الطغرائي وقف مع تلميذه عامر وقفة حازمة متصدياً لمحاولات السميرمي..

وفي جلسة بين الأمير مسعود والطغرائي كانا يتناقشان فيها حول بعض المواضيع العلمية التي كان مسعود مبهوراً فيها بمعلومات الطغرائي دخل حاجب الأمير مسعود يعلن:

- مولاي الأمير، أرسلت مولاتي السلطانة وصيفتها تستدعيكم للقدوم إليها..
- أمي؟ أبلغ وصيفتها أنني قادم في الحال..
- سأبلغها بذلك يا مولاي..

اضطرب مسعود:

- أخشى أن تكون صحة أبي قد تدهورت.. أراك في الصباح يا أبا إسماعيل..
- إن شاء الله نطمئن غداً على صحة مولاي السلطان.. بإذنكم يا مولاي..
- كانت السلطانة منشغلة بزوجها ، حزينة على مصابه:
- لا تقلق يا أبا مسعود سيحضر الأولاد في الحال..
- آه يا أم مسعود أشعر أنني أودع الدنيا ولم أكتف منها بعد...
- وكلّ الله يا أبا مسعود ، قبل قليل كنت بخير تضحك معنا وتمازح صفارك.. أمعقول أن تستسلم هكذا..؟

- حذرني (الدنهوري) من الإفراط في الطعام.. ولكن قاتل الله تلك الشهوة البغيضة.. أفرطت في العشاء وتناول اللحوم المشوية والدسم.

حضر الطبيب (الدنهوري) ودخل إلى حجرة السلطان..

- ماذا يا مولاي؟ عدت لتناول الطعام الدسم؟
- آه.. يا شيخ أطباء الموصل ، استهترت بصحتي وقلت لنفسني ، عدت إلى طبيعتي ، يبدو أنها النهاية..

- وكلّ الله يا مولاي.. كل شيء سيكون على ما يرام..

جاء مسعود فزعاً:

- أبي.. فدتك نفسي، ما الذي جرى له..؟
كانت السلطانة تبكي:
- حالته سيئة يا مسعود إنه يتعذب..
قدم له الطبيب دواء:
- تناول هذا الشراب ستتحسن بعون الله..
فشعر بحاجة للإقياء:
- وهذا ما أريده أن تفرغ ما في جوفك من الطعام ..
- آه.. أكاد أقطع من المص ..
وجاء محمود مسرعاً سأل والدته:
- خير.. ما به والدي؟
- ألا ترى عذابه يا محمود.؟
همس محمود في أذن أخيه:
- يبدو أنها النهاية يا مسعود.. غداً تصبح الدولة ملك يمينك..
- ما هذا الكلام يا محمود؟ سيشفى والدنا بعون الله، هل أنت متعجل؟ ستتحسن حالته
وهو بين يدي الدهوري شيخ أطباء الموصل..
- لا.. لا أقصد شيئاً ..
نظر إليه مفكراً ""كفاك تظاهراً يا مسعود، أنت تتمنى موت السلطان قبلي..""
- كانت السلطانة تبكي:
- إنه يختلج، يتعذب..
- خففي عنك يا أمي.. أرجوك، ستعذبين والدي بذلك..
- وفي اليوم التالي تحسنت صحة السلطان قليلاً سأل محمود أخاه:
- هل أرسلت (السميرمي) إلى ذلك العشّاب اليوم؟
- نعم.. وقد أحضر شراباً .. قال عنه إنه (الترياق) الشبيه بأكسير الحياة بالنسبة لوالدي،
وقد شرب منه... ستتحسن صحته..
- أريد أن أرى (السميرمي) حالما أطمئن على صحة أبي..
- كما تشاء.. إن رغبت في حضوره الآن سأرسل في طلبه..

- لا.. ليس الآن .. يا رب ساعد هذا الرجل العظيم في استرداد قوته..
كانت السلطانة خائفة :
- مازال يختلج يا مسعود .. روحي فداك يا أبا مسعود..
- خففي عنك يا أم مسعود ، . سأكون بخير وأنا بين يدي (الدنهوري)..

* * *

ولم يطل الوقت بالسلطان محمد السلجوقي فقد غرق في غيبوبة استمرت يومين قبل ان يموت وقد تورم جسمه وسط استغراب طبيبه الدنهوري الذي لم يستطع تشخيص هذا الانقلاب المفاجئ في حالته ، و ظلّ (مسعود) يحمل بذرة شك بأن (السميرمي) قد أعطى والده شراباً ممرضاً وربما مميتاً بدعوى أنه إكسير يشفي من جميع الأمراض..

وباح مسعود بشكوكه للدنهوري حول ذلك العشّاب :

- كيف تحسّن والدي ثم انتكس بسرعة كبيرة .. أليس لذلك العشّاب علاقة بذلك ؟
- لا أعرف يا سيّدي ..العشب الذي فحصته كان مفيداً فعلاً .. ولكن هل وضع فيه شيئاً آخر فيما بعد ؟ تورّم جسمه ليس طبيعياً ؟
- ألا يمكن التدقيق في الحالة أكثر أيّها الطبيب ؟
- يحتاج هذا لفحص جثمان والدك وشقّ بعض أعضائه ..وهذا لا يجوز..
- فهمت ..بالتأكيد أنت محقّ..

ولكن الشك ظل يعاود مسعود كلما رأى (السميرمي) فقد كان متأكداً أنه رجل أفّاق حقود ، وربما وضع شيئاً مميتاً في ذلك الشراب ليخلو له الجو مع محمود الذي بدا أنه يسيطر عليه تماماً..

كان مسعود يختلف عن أخيه بحبه للعلم وتقريبه للعلماء ، بعكس محمود الذي كان محباً للجاه والسلطة دون اكتراث بالعارفين والعاملين في حقول العلم.. وقد عرف (السميرمي) فيه التعطش للسلطة والميل لتحقيق ذاته ، فوجهه صوب هذا الاتجاه ، وهو يعلم أن شيئاً من الحقد سينمو بينه وبين الأمير مسعود..

و تسلّم مسعود السلطة عوضاً عن أبيه؟وأصبح سلطاناً للسلاجقة بعد والده ، ومنح أخاه محموداً مقاطعة أصفهان ليحكمها..وأرسل في طلب الطغرائي :

- قررت أن تصبح وزيرى الأول يا أبا إسماعيل، لنستفيد من علمك ومعرفتك، أنت رجل كثير المعرفة، كثير العطاء.. وأرغب منك أن تصارحني بكل شيء.. حتى ولو كان يجلب الهمّ والغم.. أريد منك الصدق والصراحة فأنت أقرب الناس لي..
- إن شاء الله يا مولاي..
- تؤكد والدتي أنك خير ناصح ومرشد.. وقد بذلت لأخي محمود النصح بإبعاد السميرمي ولكنه ظل على علاقته الوثيقة به.. وسيصطحبه معه إلى مقاطعة أصفهان.. هه.. قل لي يا أبا إسماعيل، لماذا يكرهك (السميرمي) إلى هذا الحد؟
- دار نقاش بيني وبين بعض الفقهاء حول أصل الوجود وعلته، بحضور السميرمي أكدت في ذلك النقاش أن الإنسان يختار طريقه بالعقل دون تدخل من الخالق.. لأنه سبحانه وتعالى أعطاه العقل ليختار طريقه إما للخير أو للشر.. وهو فضله بهذا العقل على الملائكة والشياطين..
- آه.. فهمت.. وقد حاول اصطيادك بذلك الاختيار، فأوحى لجماعته باتهامك بالزندقة والكفر.. إنه رجل خبيث..
- وهناك أمر آخر، هو أن لتلميذي عامر النجدي اختاً جميلة ما تزال في ريعان الصبا طلب (السميرمي) مني التدخل لدى عامر ليقدمها جارية للأمير محمود عن طريقه.. وقد سمعت أنه يحضر الجوّاري إلى داره الفخمة، وبعد أن يتمتع بهن يرسلهن للأمير محمود..
- النذل؟ ويعرف محمود بذلك؟
- لا أدري.. ولكن عفرأ أخت عامر، هي فتاة حرّة من إحدى قبائل نجد، كيف يمكن له أن يطلب منها أن تصبح عبدة للأمير محمود؟ هذا مناف للأخلاق والقيم..
- معك حق..

* * *

وقد قدم الطغرائي أعماله الموسوعية الكبيرة في الكيمياء والرياضة وفي الأدب والشعر أيضاً، وقد استفاد من عمله كوزير للسلطان مسعود السلجوقي، فقدم العديد من الكتب والأبحاث.. وأخذ مؤلفات جابر بن حيان وابن سينا والرازي وعلق عليها ونقد بعضها وله كتاب خاص عنوانه (الرد على ابن سينا في الكيمياء).

وفي كتابه (أبحاث في تاريخ العلوم الطبيعية في الحضارة العربية والإسلامية) يؤكد الدكتور أحمد شوكت الشطي أن الطغرائي قد وضع بضع رسائل في الكيمياء سمى إحداها حقائق الاستشهاد وكانت غايته من تأليفها الرد على شك ابن سينا..

لقد أثبت البحث التاريخي أن العرب في القرنين العاشر والحادي عشر الميلاديين لم يكتفوا بإجراء التجارب وكتابة الرسائل العلمية فحسب، بل بحثوا في النظريات الكيميائية والمركبات المستعملة في الطب والصيدلة، فقد استحضرت العقاقير المختلفة بتقطير النباتات والأعشاب أو بتفاعلها كيميائياً مع مواد أخرى..

لقد أسهم الطغرائي في علم الكيمياء إسهامات جليلة، فهو يعد من كبار العلماء في هذا الميدان..

وله اليد الطولى في اكتشاف مركبات كيميائية هامة إضافة لابن حيان والرازي والجلدكي وابن سينا..

وقد بقي كتابه (المصاييح والمفاتيح) مرجعاً يستدل به لما يحتويه من نظريات في علم الكيمياء، التي تُعدُّ الآن جزءاً لا يتجزأ من الكيمياء الحديثة..

و بعد ان عيّن الطغرائي وزيراً للسلطان مسعود السلجوقي، وكان رجال السميّرمي ينتشرون بين الناس ويلفّقون الأكاذيب والتهم حول الطغرائي مما أغضب السلطان مسعود فحاول النيل منه ومعاقبته لولا أن محموداً أخاه حمى السميّرمي..

* * *

- لا تبكي يا أخية، لن يمسك أحد بسوء..
- هذا الرجل المتوحش، أقسم أن يصل إليّ ولو كنت في آخر العالم..
- لاتخافي، تكلم أستاذي الطغرائي للسلطان مسعود فوعد خيراً..
- أرجوك يا عامر.. ساعدني للهرب من هذه المدينة، لا أريد أن أحيا هنا تحت الخوف والعذاب..
- حين يحين الوقت سأوصلك إلى دارنا في تلك البلدة البعيدة.. لا ريب أن أمي تتذكرك دائماً.. وأنت بعيدة عنها كل هذا البعد..

- ليتني لم أحضر إلى هنا ، لقد زينت لي يا أخي العيش هنا في الموصل وبالغت في وصفك.. حتى جئت معك دون تردد ، قاصدة أن أتعلم أنا أيضاً ، وأدرس وأبحث..
- أَلَمْ تستفيدي من أستاذنا الطغرائي؟
- إنه رجل عالم قدير ، كثير الذكاء ، كثير النبل ، لم أر في حياتي رجلاً يدافع عن مبدئه مثله..
- أرجوك هدئي من روعك ، لن يستطيع السميرمي أن يصل إلى هنا ، نحن في حماية الوزير الأول للسلطان مسعود ، أليس الطغرائي هو الوزير الأول للسلطان؟ لماذا الخوف إذن.. ألا ترين الجند يحرسون البيت؟
- نعم.. ولكنني خائفة من ذلك الخبيث..
- لاتخافي يا أخية..
- كان السميرمي يوغر صدر محمود ضد أخيه :
- وكيف أيها الأمير ترضى بذلك؟ أنت الأذكى والأقدر من أخيك على استلام زمام الأمور في البلاد ..
- ولكن أُمي ، تحب أخي كثيراً ، وهي ترفض أن أخالفه في الرأي ، إنها وصية والدي.
- إنه قليل الحيلة ، يجب أن تنسى موضوع والدتك في هذا الأمر ، وأن تغض الطرف عن وصية السلطان محمد التي كتبها تحت تأثير والدتك.. أنت رجل قوي شجاع ، الجند سيلتفون حولك..
- لا يانظام الدين.. لست أستطيع التفكير في هذا الأمر الآن..
- إذن مادام أخوك قد جعلك حاكماً على إقليم أصفهان فلتثبت موضعك هناك ، وتمسك زمام الأمور جيداً ، وبعدها لكل شيء ميزانه ووقته..
- ماذا حدث لتلك الفتاة يانظام الدين؟
- تقصد عفراء أيها الأمير..
- نعم.. أخت تلميذ الطغرائي..
- لم نستطع الوصول إليها ، وزير أخيك يقف في وجهي بعنف وتحد..
- إنه رجل عنيد ، لم لم تتول أمره؟
- السلطان مسعود يحتضنه بسطوته ، ولا يخالف له رأياً..
- أصبح تلك الإشاعات التي تروجها عنه؟

- أنا؟ أية إشاعات أيها الأمير؟
- أنه كافر، خارج على الإسلام؟
- الطغرائي رجل حر، لا يأخذ بالاً لتعاليم الدين، وقد وقف ضد بعض الفقهاء متهماً إياهم بعدم فهم الدين، وفي رأيه أن العلم لا يتناقض مع الإسلام.. لذلك فهو يحاول ضرب الشريعة بأكاذيب وحيل خادعة وجمل منمّقة..
- أعتقد أنك تظلمه في ذلك، إنه رجل واسع الفهم والإدراك ما في ذلك من شك يا نظام الدين..
- كأنك تميل إليه أيها الأمير؟
- بالعكس أنا أكرهه كثيراً، وأعلم أن كل ما يحققه أخي من انتصارات على الصعيد العام يعود فضلها إليه..
- إذن؟ يجب أن نتفق معاً لإقصائه، وبعد ذلك تصبح نقاط ضعف أخيك كثيرة، يمكن الدخول منها واصطياد مركزه..
- قاتلك الله ما أكثر خبتك..
- في خدمة مولاي السلطان محمود السلجوقي..
- قال محمود متعجباً:
- أنا؟ أنا السلطان محمود..
- لن يطول الأمر يا مولاي..

* * *

- وفي بيت الطغرائي كان عامر يردد بعض أبيات العالم الكبير:
- عن أية قصيدة تتحدث يا عامر؟
 - عن القصيدة التي مطلعها :
- أصالة الرأي صانتي من الخطل وحيلة الفضل زانتي لدى العطل..
- والتي تقول فيها جملة أبيات ربما كانت من أجمل ما قيل في الشعر العربي..
- أية أبيات تقصد؟

أعلل النفس بالآمال أرقبها ما أضيق العيش لولا فسحة الأمل
 لم أرض بالعيش والأيام مقبلة فكيف أرضى وقد ولت على عجل
 غاض الوفاء وفاض الغدر وانفرجت مسافة الخلق بين القول والعمل
 - آه ياسيدي كأنك تتحدث واصفاً هذا الزمان الصعب الذي نخر فيه السوس والأذية
 نفوس الناس..

* * *

وفي تلك الليلة دخل الخادم الخاص إلى الطغرائي في مكتبته:
 - سيدي الوزير، في الباب امرأة تريد الدخول تزعم أن ابنها يعيش هنا..
 - ابنها يعيش هنا؟ قد تكون أم عامر، أدخلها..
 - في الحال ياسيدي..
 كانت امرأة كهلة يبدو التعب عليها:
 - عمت صباحاً ياسيدي.. أنت هو الطغرائي أستاذ ابني عامر؟
 - أهلاً بك ياخالة تفضلي..
 - وأين ولدي؟ سألت عنه في بيته القديم، قيل لي أنه يسكن الآن مع وزير السلطان، دلني
 الناس على هذا البيت الفخم..
 - عامر في القسم الخلفي من البيت سأرسل من يستدعيه لك، ولكن لا بأس لماذا لاتذهبين
 بنفسك إلى هناك، وتلتقين ابنتك عفراء أيضاً..
 استدعى خادمه الخاص وهمس له:
 - خذ هذه المرأة الطيبة لتلتقي ابنها عامر في جناحه الذي يعيش فيه..
 - سمعاً وطاعة ياسيدي.. تفضلي ياخالة..
 وازدادت الأمور سوءاً بين الشقيقتين مسعود ومحمود:
 - أتصدق يا أبا إسماعيل أن أخي محموداً قد فعلها. أعلن نفسه امبراطوراً للسلاجقة على
 الإقليم الغربي..
 - استمع لنصح أعوانه (السميرمي) وغيره.. هذا فعل خطير يامولاي..

- نعم.. يبدو لي الأمر أشبه بحلم مزعج..
- وماذا تريد أن تفعل يا مولاي؟
- لامفر، يجب أن أعيد اللحمة للأمة، سأردع أخي عن أفعاله..
- ليس ذلك سهلاً، قد تحدث الحرب..
- وماذا أفعل هل أترك الأمة منقسمة على نفسها، وأخي يهدد بتوسيع ملكه وامبراطوريته على حسابي، وهو أقرب الناس إليّ..
- وما زالت والدتك هي صمّام الأمان بينكما..
- إنها مريضة، لا أستطيع إخبارها بما يجري قد تتأثر كثيراً وتزداد مرضاً..
- إذن ستهاجم الأمير محمود وتحاول رأب الصدع..
- سأنتظر ردّه على الرسالة التي أرسلتها إليه، أطلب منه العودة عن قراره بإعلان الامبراطورية..
- ليته يفعل حقناً لدماء المسلمين..
- إن شاء الله سيفعل؟
- ولكن السميرمي أوحى لمحمود بعدما قرأ الرسالة أن الأمر يختلف:
- بدا السلطان مسعود يرتجف خوفاً منك يا مولاي.. لن يجرؤ على مهاجمتك وإن تجرأ على ذلك ستكون لك الغلبة اطمئن..
- إنه أخي يانظام الدين..
- في السياسة صلة القرابة تنقطع، قد يقتل الأخ أخاه من أجل السلطة، إنه أمر يتكرر عبر التاريخ..
- وماذا تقترح أن نردّ عليه؟
- رسالة تطلب منه التسليم والخضوع للأمر الواقع..
- سيكون ذلك قاسياً عليه..
- هذا أفضل، سيحسب عندها الحساب لقوتنا والتفاف الجند حولنا؟ قبل أن يجرؤ على التفكير بالهجوم علينا..
- هز محمود رأسه:
- ربما كنت محقاً..

وفتح مسعود بعد أيام الرسالة التي رد بها أخوه على رسالته وأخذ يرتجف من الغضب:

- أمعقول أن تبلغ به الوقاحة هذا الحد؟ أنا متأكد أن أخي محموداً، ليس ضعيفاً إلى هذا الحد..

قال الطغرائي:

- إنه من وزيره السميرمي يا مولاي.. هو الذي يملئ عليه كل تصرفاته.. وهو صاحب فكرة (جواب الرسالة) التي أرسلتها إليه، لتعيد اللحمة إلى السلطة..

تمتم السلطان مسعود

- آه يا إلهي.. لا بدّ من اتخاذ القرار الصعب . إذن..

وهكذا جهز السلطان مسعود جيشاً بسرعة، وجعل القيادة للطغرائي، كان جيشاً ينقصه العدة والعدد وكان ذلك عام (514) للهجرة..

ووقعت الحرب بين الجيشين وانهزم جيش السلطان مسعود، ووقع كل من السلطان مسعود والطغرائي وزيره أسيرين لدى جيش السلطان محمود، وأحضر الأسيران ليمثلا بين يدي السلطان الذي جلس متربعا على العرش وعلى يمينه وزيره (السميرمي) وأمر السلطان محمود بإدخال أخيه الذي دخل يرسف في أغلاله:

- أما كان من الأجدر بك أن تستمع إلى صوت العقل يا مسعود؟

- صوت العقل؟ من؟ أنا أم أنت؟ ألم يوصَ بها إليّ؟ ألم يطلب منك والدي السلطان محمد أن تطيع أمري وتحترمني وتبايعني في سلطتي..

- لست رجل سياسة يا مسعود، فضّلت الحرب على المصالحة..

- الحرب على الاستسلام لك ولأعوانك. أحطت نفسك بالأنذار يا محمود، إنني أشفق عليك..

- أأست خائفاً مني؟

- لا. لم أخف منك في حياتي؟ ومهما تريد فعله معي، لا أبالي..

- خذوه إلى السجن وليطعم أرباً أنواع الطعام، وليعامل معاملة المجرمين..

وسيق مسعود إلى السجن والحراس يدفعونه بغلظة وقال السميرمي بعد خروجه:

- فعلت جيداً يا مولاي..

- أدخلوا الطغرائي الآن.. هيا

وحين دخل العالم الكبير أطلق السميرمي ضحكته الفاجرة في وجهه فصرخ:

- أتشمت بي أيها الحاقد اللئيم؟
- سترى ما سنفعله بك أيها الكافر المارق الخارج على شرع الدين الحنيف؟
- أنا أخرج على شرع الدين؟ وأنت تحمي حمى الدين بابتذالك وفسقك..
- أغلق فمك أيها الشيخ قبل أن أجعلك تبصق دماً..
- ظالم وقادر، تستطيع أن تفعل ما تشاء..
- وانفجر السميرمي من الغضب:
- ألم تسمع ما قاله مولاي السلطان..أسكتوه..
- إنه لايتأثر بالضرب ولايرتعش..
- سنرى كيف ستطلق التآوهات من فمك الكريه..
- ولكن الطغرائي كان يردد الشعر :
- أعدى عدوك أدنى من وثقت به فحاذر الناس واصحبهم على دخل
- ترجو البقاء بدار..لا ثبات لها فهل سمعت بظل غير منتقل ؟..
- وتتواقح بالشعر أيضاً؟
- همس محمود ضاحكاً:
- إنه شعر جميل يا نظام الدين. ولكنه لن يفيد شياً..
- تريد قتلي أيها السلطان.. عجل بقتلي لست بخائف من الموت..
- قال السميرمي متوعداً:
- ستركع على رجليك تحت قدمي السلطان ترجو أن يعفو عنك..
- خست أيها الحاقد اللئيم..
- سترى أيها الكافر المارق ما سيفعله بك السلطان.. خذوه من هنا سترى كيف سيتم
- إعدامك على الملاء أيها المتبجح الكافر..
- تحكم باسم السلطان، وتعطي الأوامر، لست خائفاً منك أيها الدنيء..
- خذوه من هنا..

وهكذا عندما عزم السلطان محمود السلجوقي على قتل الطغرائي، أمر أن يربط إلى الشجرة وأن يقف أمامه حملة السهام وهم يسددونها إليه..وطلب محمود من أحد رجاله الوقوف

خلف الشجرة التي سينفذ عليها الحكم بالطغرائي ، وأن يكتب مايقوله مهما كان.. استعجل السميرمي تنفيذ الحكم :

- ألن تشير لحملة السهام يا مولاي ليبدووا عقاب المارق ؟
 - سأشير إليهم ، لن يرشقوا الطغرائي بالسهام فوراً ، أمرتهم أن يسددوا ويتأنوا قليلاً..
 - لا يبدو على الطغرائي الخوف والموت قاب قوسين أو أدنى منه؟
 - إنه يتكلم ويحكي.. كأنه يقول الشعر..
- كان الطغرائي ينشد :

ولقد أقول لمن يسدد سهمه نحوي وأطراف المنية شرع
والموت في لحظات أمر طرفه دوني وقلبي دونه يتقطع
بالله فتش عن فؤادي هل يرى فيه لغيرهوى الأحبة موضع
أهون به لو لم يكن في طيه عهد الحبيب وسره المستودع

وحكى الرجل للسلطان ما قاله الطغرائي :

- أهكذا قال؟ إنه شعر رقيق..
- لم يزد على ذلك حرفاً يا مولاي..
- فكوا وثاقه أيها الجند ، وليأت إليّ..

ارتقب السميرمي :

- ماذا تفعل يا مولاي؟
- سأطلق سراحه ، إنه رجل نبيل شجاع..
- ولكنه كافر بالله جاحد بالشريعة الإسلامية..
- لا تكثر من كلامك يا نظام الدين ، لقد أصدرت الأمر..

ولكن السميرمي عاد يلح على السلطان ليقتل الطغرائي ، مشدداً على اتهامه بالإلحاد والزندقة وهو من ذلك بريء طاهر.. وهكذا نفذ فيه حكم الإعدام عام (515) للهجرة الموافق (1121) ميلادية وهو في الستين من عمره..

أما السلطان مسعود فغفا عنه أخوه وأرسله عائداً إلى الموصل..

ولكن الأمور لم تصف للسميرمي..

- إلى أين عامر؟

- سأسافر للاطمئنان على أهل أستاذاي بعد أن قتلوه قاتلهم الله..
- انتبه لنفسك يا ولدي..
- قالت عفراء:
- كان رحمه الله شهماً نبيلاً محباً للخير..
- من واجبي أن أقوم على مساعدة أهله، كان أقرب من الأب إلي..
- معك حق يا عامر..
- على بركة الله يا ولدي..
- كان عامر يردد وهو يقترب من بيت الوزير نظام الدين السميّرمي:
- رحمك الله يا معلمي وأسكنك فسيح جنانه، والله لم أتعلم شيئاً في حياتي إلا وكان منك أو بواسطتك..
- قرع الباب ففتح له أحد الحجاب:
- ماذا تريد؟
- أرغب بمقابلة سيدي نظام الدين أحمل أخباراً خاصة له..
- ومن نقول له؟
- قل له من خطف عفراء.. قد أحضرها له..
- انتظر قليلاً هنا..
- فكر عامر قلقاً:
- ليساعدني الله..
- وسرعان ما ظهر الوزير الكهل:
- من أنت أيها الرجل؟ أصحيح ما يقوله الخادم؟
- نعم يا مولاي.. أرجو أن ننفرد لوحدهنا..
- حسن لندخل إلى هذه الغرفة.. تفضل.. أين الصبيّة الآن؟
- لم نتفق بعد يا سيدي..
- تبدو محنكاً.. لقد صدق حاجبي (جواد الدين) حين أخبرني أنه يحاول الوصول إليها،
- كان يعتقد أنها اختفت من الموصل.. هه.. إذن أحضرتها؟ أنت رجل شجاع..
- الآن بقينا لوحدهنا..

- أشهر عامر خنجره الحاد ، فارتجف الوزير:
- ماذا تفعل؟ لن تخرج من هنا..
 - لا يهمني الموت..
- انقض عليه يطعنه وهو يردد
- كان يجب أن أفعل ذلك بك منذ سنوات.
- وتمكن عامر من الهرب بعد قتله (السميرمي) وعاد إلى أهله ضاحكاً مستبشراً وقد أخذ بثأر الطغرائي..الذي قتل ظلماً وغدراً..
- خلف الطغرائي عشرة كتب في الكيمياء عدا عن شعره الغزير.. من كتبه (جامع الأسرار وتركيب الأنوار- في الأكسير- جامع الأسرار في الكيمياء - سر الحكمة في شرح كتاب الرحمة - الجوهر النضير في صناعة الأكسير- مفتاح الرحمة ومصابيح الحكمة - ذات الفوائد - رسالة مارية بنت سابه الملكي القبطي في الكيمياء ..) وغير ذلك..
- كان رحمه الله عالماً كبيراً موسوعياً ، ظل تراثه يدرّس في الغرب حتى عصور متأخرة..

